2

النهضة

تغيرت تقاليد الأدب العربي الكلاسيكي، التي رأيناها في الفصل الأول، بشكل أساس ونهائي بفعل العلاقات المتبادلة التي نمت بين العالم العربي والغرب في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وبالنسبة إلى الأدب، فإن التأثير الرئيس لهذه العملية من العلاقات التبادلية هو الإحلال المطرد للأشكال الأدبية الغربية (المسرحية، والرواية، والقصة القصيرة) محل أشكال الأدب العربي بوصفها وسائل رئيسة (وليست الوحيدة) للتعبير الأدبي في النثر، مصاحبًا هذا الإحلال (ولو متأخرًا) تفكيكًا للشكل الكلاسيكي في الشعر، على الرغم من أنه من المستحيل تحديد تاريخ معين لهذا التغير، ولكن النهضة (وهو مصطلح استخدمه أولًا جورجي زيدان[1]) الناتجة امتدت تقريبًا من وسط القرن التاسع عشر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، ومن المهم عندما نصف هذه العملية أن نتذكر أن التطور الأدبي لم يكن متساويًا في جميع أنحاء العالم العربي، وأن هناك كثيرًا من المناطق التي فشلت في أن تشعر بالتطورات الحاصلة في مصر أو سوريا[2] (رائدتي النهضة في مراحلها الأولى) مدة من الوقت أيضًا. وكما هي الحال في معظم التطورات الأدبية، تداخلت مراحل التطور- إلى درجة أنه مازال من الممكن أن يوجد شعراء، بشكل خاص في بعض أنحاء العالم العربي، يستخدمون الأشكال الشعرية التي يمكن أن تُعَدُّ «كلاسيكية» حتى اليوم.

يثير التاريخ المتعارف عليه بوصفه بداية لهذه العملية، 1798م، وهو تاريخ غـزو نابليون مصرَ عـددًا من الأسئلة الأدبية والسياسيـة والاقتصادية. وإذا كان بعض المعلقـين يُتهمون بأنهم متلهفون على وصف السنوات اللاحقة لعام 1258 (أو 17–1516) بوصفهـا حقبـة متواصلة من الاكتئـاب (إذا استخدمنا مصطلح هيـوود Haywood. عصر الكساد)[3] فـإن الآخرين (أو في الأغلب، هم ذاتهم) يتهمون مع بعض التبرير بإعطاء أهمية لعام 1798م لا يستحقها. وتكثر التعميمات الواسعة، وتكون مصحوبة بمسحة من المبالغة بوصفها بديلًا للتحليل الدقيق. على سبيل المثال، يلاحظ بدوي ببساطة أنه «أوقظت الثقافة العربيـة بفظاظـة من كل هـذه التعقيـدات (التعقيدات التـي أفرزها الحكم العثمـاني) حين غزا بونابرت مصر عـام 1798م[4]، في حين هيوود ينظر إليه علـى أنه تحصيل حاصل، لو تـرك الأدب العربي لأدواته، ويلمح إلى أن العالم العربي بشكل عام وصل إلى نقطة اللاعودة، وذلك «في هذه الحالة ليس هناك إلا الاتصال بثقافة أخرى لإيقاظ الأدب العربي من سباته»[5].

وأيًّـا كانـت أهمية غـزو نابليـون للتطـور الاجتماعـي – الاقتصادي في البلـد[6]، فإنـه مـن الصعب تجاهـل مكانته بوصفـه نقطة تحـول في الثقافة المصرية، وكما لاحظ محمـد صديق «التسليم بالاحتلال الفرنسي... بوصفه حدثًـا أساسيًّا لبث الحياة في الأدب العربـي الحديث... موثق بشكل كبير ولا يمكن نقضه بسهولة»[7]. ولكن يجب أن ننتبه إلى أن افتراض الأهمية المباشرة لأحـداث سياسيـة على تطور الثقافة في بلد عربي ما لـن يكون لها بالضرورة الأهميـة نفسها في بلد آخر. وكما لاحظنـا، فالتطور الأدبي لم يظهر بالوتيرة نفسها عبر العالم العربي، على الأقل في مراحله الأولى، ظهرت النهضة فقط في مصـر وسوريا الكبيرة، ولكن الخلفية الثقافيـة والمساهمة الناتجة لهاتين

المنطقتين في تطور الحركة كانت مختلفة. لم يكن لغزو نابليون عام 1798م أهمية مباشرة للتطور الأدبي في سوريا في القرن التاسع عشر، التي يختلف جذريًا ارتباطها مع الغرب والإمبراطورية العثمانية خلال هذه الحقبة عن تلك التي لمصر.

وتشير هذه الاعتبارات إلى أمور عدة: أولًا، أي نقاش عن النهضة يجب أن يكون له بعد جغرافي. ثانيًا (أكثر أهميةً) مفهوم النهضة بوصفه حركة منتظمة من شبه المؤكد أنه ليس كذلك. ومن هذه الخلفية، سوف نقسم بقية هذا الفصل بشكل كبير على أساس جغرافي، على الرغم، كما سنرى، من أن التفاعل بين المناطق المختلفة عنصر حاسم عند نقاط اتصال معينة.

مصر

كما أوضحنا، الصورة التي رسمها هيوود[8] وآخرون عن «عصر الكساد»، الخالي من الثقافة والممتد مدة نحو 300 سنة من الفتح العثماني هي في الأغلب مبالغ فيها. وكما أوضح نيلي هانا [9] Nelly Hanna أن أشكال التعبير الأدبي خضعت في مصر لتغيرات مهمة خلال العصر العثماني، عاكسة تغيرًا في الوضع السياسي لمصر، وإعادة تعريف للمجموعات الاجتماعية المختلفة في عمليات التعبير الثقافي. إحدى النتائج أن أشكال الفن الشائعة – ويشمل ذلك عادة استخدام اللغة العامية – أخذت أهمية أكبر من قبل. من هذا المنطلق، فإنه يحكم على الأدب العربي في العصر العثماني بأنه أقل قيمة من الذي كتب في أوائل العصر العباسي. ويثار أيضًا أن إشاعة الثقافة في القرن الثامن عشر وقبل ذلك أيضًا (إلى حد ما) وضعت الأسس لنمو جمهور حديث قارئ من الطبقة الوسطى، في القرن التاسع عشر وتحت تأثيرات غربية جديدة.

وأحـد النمـاذج النظريـة الممكنة لتطـور الأدب العربي الحديـث سوف ينظر بالتأكيد إلى تطوره بوصفه ناتجًا من توتر أساس بين ثلاثة جداول مميزة من النشاط الثقافي: التراث العربي - الإسلامي «الراقي»، ويكون مرتبطًا بالأدب المكتـوب بالفصحـى، وموازيًا له، تـراث الأدب الشعبي، ولو أنـه موثق بشكل أقـل، وعادة يكون باستخدام العامية، والتأثـيرات والأشكال الأدبية الجديدة المأخـوذة من الغرب. وهذا التوتر له علاقـة، ليس فقط بمصر القرن التاسع عشر، ولكنه سيظهر في أماكن عدة في السرد الذي جاء لاحقًا، والتداخل بين الشائع والغربي لأهميته الخاصة في تطور المسرحية العربية الحديثة[10].

وأيًّا كان، رأي الاحتلال الفرنسي القصير لمصر الذي أعقب غزو نابليون، فقد أحدث تطورات غـيرت التطور الثقافي والتعليمى للبلد بشكل دراماتيكى. وعلـى الرغم مـن أن الحملة كانـت في أساسهـا مغامرة عسكريـة تصب في عمقهـا في التنافس الإمبريالي الإنجليزي - الفرنسي[11]، ولكن الغزو كان في جزء منه مغامرة ثقافية، حيـث رافق مجموعة من العلماء والباحثين الجيش الفرنسي، وقاموا بمسح شامل للبلد الذي نشر بعد ذلك باسم «وصف مصر» Description de l Egypte[12]. وأســس الفرنسيـون معهـدًا علميًّا في القاهرة، وأقاموا عـددًا من المجالس الإقليمية، مقدمين للمصريـين المؤسسات المدنية للمـرة الأولى، وربما من أهمها، بالنسبـة لتاريخ تطورالأدب، إدخال الطباعة التـي استخدمت ليس فقـط لطباعة الإعلانات للجمهور المحلـي، ولكن أيضًا لطباعـة الصحف مثل la decade egyptienne ومجلة علمية تعليمية le courier de l' Egypte وكلاهما ضمنتا في بعض الأحيان مواد أدبية[13].

وكمـا لاحـظ أحد المعلقـين المعاصريـن، فقد لفتـت ثلاث سنـوات من الاحتـلال الفرنسي لمصـر 1801-1798م اهتمامًا علميًّـا وشعبيًّا أكثر من أي

مرحلة مشابهة في تاريخ البلد[14]. وهذا الاهتمام ليس حكرًا على المعلقين الغربيين: وليس بمستغرب أن الغزو أظهر ردة فعل ليس فقط من المراقبين المصريين، ولكن من آخرين في الشرق الأوسط، ومن هؤلاء المؤرخ والشاعر اللبناني نيقولا الترك، الذي بعثه أمير الدروز بشار لكتابة تقرير عن الاحتلال الفرنسي[15]. ولردة فعل العالم والمؤرخ المصري الجبرتي أهمية خاصة؛ لأنه يمثل ردة الفعل المتضاربة بين القبول والرفض للمتعلمين المصريين لهذه المواجهة الأولى مع الثقافة الغربية - وهو شعور طغى على معظم تطور الأدب العربي الحديث لاحقًا، وبالطبع على الثقافة العربية الحديثة بشكل عام. وكتب بعبارات غامضة في وصفه سنة الغزو مثل «بداية انقلاب النظام الطبيعي وفساد وانحلال كل شيء»، واتهم الفرنسيين بأنهم ماديون وينكرون قدرات الله، والحياة الدنيا، والمعاد ويرفضون النبوة»[16]. بعد ذلك يبدو أن موقفه تغير، وهو يبين إعجابه بالإنجازات العلمية والثقافية الفرنسية مقارنًا إحساسه بالعدالة بالعثمانيين، ويعلق على ذلك: «جميع معاملات المسلمين احتيال، في حين جميع معاملات الأوروبيين نزيهة». وفي حكم شامويل موره shamuel Moreh هذا الوعي بقصور الإسلام (تطبيق الإسلام: المترجمة) نذير بمطالبات الأجيال الإصلاحية المسلمة المتأخرة بنهضة أخلاقية، واجتماعية ودينية وعلمية في العالم العربي. وتأكيد أن الاحتلال الفرنسي لمصر هو نقطة الانطلاق لعصر النهضة[17]. ويمكن أن نضيف أن مقارنات الاحتلال الضمنية أو العلنية بين العرب والحضارة الغربية، ونعلن أن هذا الاحتلال أحد أهم المحفزات القوية للأدب العربي الحديث، كما يجاهد الكتاب العرب لتعريف أنفسهم وثقافتهم بالنسبة للقيم الأوروبية.

بقيت مصر دولة مستقلة فعليًا على الرغم من كونها حقيقة لا تزال جزءًا من الإمبراطورية العثمانية، ومن خروج الفرنسيين عام 1801م حتى

obeikandl.com

الاحتلال البريطاني الذي بدأ عام 1882م. وإذا كان غزو نابليون قد قدم للمصريين لمحات أولى لحضارة بديلة، فإن الفضل، في جزء كبير من تطور البلد خلال القرن التاسع عشر (ومن ثَمَّ للكثير من التطور في الثقافة العربية الحديثة) يعود إلى جندي طموح من أصول ألبانية، محمد علي، الذي أتى إلى مصر مع الجيوش العثمانية التي أرسلت لطرد الفرنسيين، مستغلًا الفوضى التي أعقبت خروج رجال نابليون، واستطاع أن يُنصِّب نفسه حاكمًا على مصر عام 1805م، ووضع عددًا من السياسات التي رسمها لتزيد من نفوذه السياسي والعسكري، كان لها تأثيرات جانبية ثقافية مهمة[18]. كانت الابتكارات الثقافية الرئيسة لعصره في مجال التعليم. وكانت عملية من طرفين: استقدم مدرسين أجانب، في البداية كانوا إيطاليين، وبعد ذلك أصبحت الأغلبية فرنسيين لتدريب الضباط والإداريين والآخرين، كانوا مهنيين مهرة بسبب الاحتياج لهم لتشغيل مصر الجديدة، وأقيمت نحو 50 مدرسة ابتدائية مع بعض مؤسسات التعليم العالي. وفي الوقت نفسه كان المصريون يبتعثون للدراسة في إيطاليا وفرنسا. ويجب على هؤلاء الطلاب عند عودتهم من الخارج أن يترجموا الكتب التي درسوها، وكان أيضًا يعول على المستشرقين الغربيين والسوريين النصارى للمساعدة على مهمة توفير الكتب للمدارس الجديدة. وأنشئت مطبعة البولاقية عام 1822م وعام 1828م ظهرت أول نسخة من مجلة المصريين الرسمية «الوقائع المصرية»، في البداية كانت تطبع بالتركية والعربية ثم بالعربية فقط (عام 1847م)[19].

هذه التطورات لها عدد من المعاني المهمة لتطور الأدب العربي الحديث في مصر، وبالتأكيد في العالم العربي بشكل عام. وعنى افتتاح مطبعة بولاق المرحلة الأولى في التحول من القراءة المعتمدة على النسخ (التي كان يختص

بها بشكل كبير علامة، أو عالم الدين المسلم) إلى قراءة تعتمد على الكلمة المطبوعة - والازدياد المطرد في عدد القراء نتيجة لإصلاحات محمد علي التعليمية[20]. وأدى اتساع نطاق الانتشار السهل للكتب التعليمية المطبوعة دورًا كبيرًا في تأسيس وعي ثقافي ووطني أثمر بعد ذلك، ليس فقط في النهضة الثقافية للقرن التاسع عشر، ولكن في الظهور اللاحق للقومية السياسية العربية[21]. وكان هذا التقدم مرتبطًا بشكل قوي مع ظهور الصحافة التي سريعًا ما بدأت بأداء دور مهم ليس فقط في المساعدة على صياغة إحساس جديد بالوعي الوطني، ولكن أيضًا وفرت مكانًا للتدريب للكتاب الشباب، وهو دور مازالت تؤديه حتى اليوم. وصاحب هذه التطورات استبدال تدريجي للعربية بالتركية بوصفها لغة رئيسة للتعليم والإدارة، وأيضًا تغيرات في اللغة العربية ذاتها، بما في ذلك ظهور أسلوب نثري أكثر حداثة وأقل تقعرًا، وكلمات قادرة على التعامل مع الأفكار الحديثة بشكل مفهوم من جمهور القراء المتزايد [22].

من وجهة نظر التطور الأوروبي، فإن أهم مؤثر في هذا التطور هو الدور الذي أدته الترجمة دون شك. كما أسلفنا، فإنه كان يجب منذ وقت مبكر على الطلاب العائدين من الخارج أن يترجموا الكتب التي تعلموها، وعام 1835م أعطيت حركة الترجمة دفعة قوية، وذلك بتأسيس مدرسة اللغات في القاهرة لتعليم اللغات الإيطالية والفرنسية والإنجليزية تحت إدارة رفاعة رافع الطهطاوي (1801-71)، الذي رافق أول بعثة تعليمية مصرية إلى فرنسا إمامًا بتوجيه من محمد علي، ويعد أحد العلماء المصريين المميزين «علامة» في القرن التاسع عشر، وعمل في القطاع الحكومي وشمل عمله بعض الوقت، رئاسة تحرير الجريدة الرسمية «الوقائع المصرية»، وإدارة مكتب الترجمة

الذي أقيم عام 1841م، وعدة مناصب إدارية أخرى تحت حكم إسماعيل خليفة محمد علي (1879 - 1863)، وكانت معظم الترجمات عادة إلى التركية وليس العربية، كما كانت محصورة في جزء كبير منها في الأعمال العربية والتقنية، ولكن بمرور الوقت بدأت أعمال ذات قيمة أدبية وتاريخية تجذب اهتمام الطلاب المصريين وترجمة الطهطاوي لرواية فنلون Fenelon التعليمية Les Aventures de Telemaque مغامرات تليماك التي نشرت بالعربية في بيروت عام 1867م كانت استهلالًا، سرعان ما لحق بها بحماس كثير من الترجمات في السنوات المتبقية من القرن[23].

إضافة إلى دور الطهطاوي في الترجمة والتعليم، فإنه أضاف مباشرة إلى الأدب المصري من خلال تأليفه أربعة كتب أدبية قدمت نظرة فاحصة ورائعة عن كيفية تطور الثقافة المصرية التقليدية تحت التأثير الغربي[24]، وأشهر كتبه هو «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» الذي كتبه سريعًا بعد عودته من باريس[25]، ويعطي شرحًا رائعًا لانطباعاته عن فرنسا، ويكشف موقفًا مدهشًا من الحضارة الغربية، مقارنًا التعليم الغربي، بشكل خاص، ومفضلًا له على تعليم الأزهر والمؤسسات التعليمية المصرية الأخرى؛ لإصرارهم على التعليم التقليدي. والعمل مهم أيضًا على مستوى آخر؛ لأنه وضع نموذجًا لسلسلة من الأعمال لكتاب مصريين، وأيضًا لآخرين من العالم العربي الذين سجلوا انطباعاتهم عن الغرب عند عودتهم، وتأملوا في الاختلافات بين الحضارة الغربية والحضارة العربية. من أمتعها كتاب المعلم الإداري المصري علي مبارك (1893-1823)، ويصف كتابه المكون من أربعة أجزاء بعنوان «علم الدين» مغامرات شيخ أزهري (من المحتمل أن يكون هو نفسه على غرار ما فعل الطهطاوي) يسافر إلى الغرب برفقة مستشرق إنجليزي[26] ليثقف نفسه

على طرق الحضارة الغربية. ووجدت هذه الفكرة تعبيرًا أقوى في كتاب محمد المويلحـي المهم حديث «عيسى بن هشـام» (1898م)، وأضيف لاحقًا للطبعات اللاحقـة جزء إضـافي عُنْوِنَ بـ «الرحلة الثانية»، وفي هـذا الجزء يتبع الكاتب تقليدًا سابقًا درج عليه عدد من الكتاب في نهاية القرن التاسع عشر، ويصف زيارتـه معرضَ باريس الدولي عام[28] 1900. وكما سنرى لاحقًا[29]، مع ظهور تقليـد روائي حقيقـي في القرن العشريـن، نجد صورة الطالـب الذي يذهب إلى الغـرب لاستكمال تعليمه، ويواجه تحديًا وتغـيرًا، يتكرر في أعمال الكتاب المصريين والعرب وبينهم توفيق الحكيم، واللبناني سهيل إدريس، والسوداني الطيب صالح.

علـى الرغـم مـن أن مـدة حكم محمد علـي هي التـي شهـدت البداية الحقيقية لظهـور الطبقة الوسطى المصرية، ولكن التطـور التعليمي والثقافي قـام في عهده على أساس غير ثابت، واعتمد بشـكل كبير على شخصية وقوة الحاكم العسكريـة. وباضمحلال هذه الأسباب فقـدت حركة الترجمة كثيرًا مـن قوتها. والقليل، إذا كان هناك شيء، مـن التجديدات المهمة التي ظهرت في عهـد كلٍّ من إبرهيم (1848) وعبـاس (1849–58) أو سعيد (1854–63)، إلا أن التجديـد أخـذ في الظهـور بتبـوُّء إسماعيـل (1863–82) ذي التعليـم الفرنسـي، الـذي كان مهتمًّـا بالتعليـم مـن أجـل التعليـم. وأولى الخديوي الجديـد عنايته، للجميع دون تعصب دينـي: ازداد عدد المدارس التي يديرها الأوروبيـون، وأنشـأت الإرساليات التبشيرية الكاثوليكيـة مقرًّا لها في مصر، وبعث النشاط في نظـام المدارس الحكومية، مجسدة لأول مرة الاختلاف بين المؤسسات «المدنية» و«العسكرية»، وأعيد افتتاح مدرسة الطهطاوي للغات عام 1868م التـي أسست عام 1835م، وفتحت مكتبة الخديوي (الآن تسمى المكتبة

الوطنيـة) دار الكتب عام 1870م، وشهدت السنـوات القليلة اللاحقة تأسيس أول كليـة تدريبيـة (دار العلـوم) للتعليم العـالي عـام 1872م، وأول مدرسة للفتيـات (1873م)[30]، وفي عصـر إسماعيل ازداد عـدد الأوروبيين المقيمين في مصر بشكل كبير. وحـول برنامج التنمية شكل القاهرة بمبانيها الجديدة وطرقها وضواحيهـا ذات الطابع الأوروبي في مقارنة لها بباريس Hausmann. وكثـير من هذه التطورات وضـع تحت عناية علي مبـارك ليتابعه، الذي سبق ذكـره عند الحديث عـن كتابه «علم الدين»[31]، ومهـد الطريق لتطور المدينة الذي يبدو أنه لا يتوقف في المساحة والسكان في القرن العشرين.

وعام 1869م بوصفه جـزءًا من الاحتفالات بافتتاح قناة السويس أسست دار الأوبـرا في القاهـرة، وهو حدث له أهميته الثقافيـة، وافتتحت بأداء أوبرا ريقلتو Rigoletto لفيردي Verdi. على الرغم من أنه كانت هناك مؤسسة تدعى «كوميـدى» أنشئت خـلال الاحتلال الفرنسـي عام 1800م، وكانـت تقيم فيها أحيانًا بعض الفرق الأوروبية عروضًا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ولكـن افتتاح دار الأوبرا قدم للجمهور المصـري فرصته الأولى لتنمية معرفية مستمـرة بالأعمال الغربية والتقنيات المستخدمة. وزار القاهرة بعد ذلك كثير مـن الفرق الأوروبية[32]. وبقيت دار الأوبرا، الواقعة في حديقة الأزبكية، مكانًا مهمًّا في الحياة الثقافية المصرية إلى أن احترقت عام 1971م[33].

ومـن المضحـك، أن سياسـات إسماعيل، التي رسمـت لتجعل من مصر جـزءًا من أوروبا قادت إلى الاحتلال البريطـاني لمصر، بطريق غير مباشر، 1881-2، وبقـي الاحتلال بشـكل أو بآخر حتى عـام 1956م. وفي كل الأحوال، شهـدت المرحلة اللاحقة نموًّا سريعًـا في الوعي السياسي الذي ظهر في زيادة عدد الصحف والمجلات، وفي توجيه عدد من المثقفين المصريين لإعادة النظر

في العلاقة ما بين الإسلام والغرب، والحاجة إلى إصلاح ديني واجتماعي. وأهم الرواد من المثقفين كان رائد الإسلام الحديث محمد عبده (1849م-1905م)، والمصلح الاجتماعي قاسم أمين (1863 – 1908م) الذي حركت كتاباته عن وضع المرأة في الإسلام أول إشارة للاتجاه النسوي المصري[34]. وإشارة متقدمة على علامات الوعي بالذات عند المرأة المصرية كانت صدور أول مجلة نسائية مصرية لهند نوفل «الفاتحة» عام 1892م.

وعلى الرغم من أن مصر كانت لديها صحيفة رسمية منذ عام 1828م، ولكن أول صحيفة غير رسمية هي «وادي النيل» ولم تصدر إلا عام 1866م، وبدأ النشاط الصحفي المستقل يزدهر في سبعينيات القرن التاسع عشر. وقام يهودي مصري اسمه جيمس صنوع (1839 – 1912م)[35] بنشر مجلة ساخرة اسمها «أبو نظارة زرقاء»، ولكن النشر أثار غضب الخديوي الذي نفاه إلى باريس. وكان للمهاجرين السوريين، الذين فروا من الصراع المتكرر بين الإمارات اللبنانية، ووجدوا ملاذًا في مصر، دور قياديّ في تطوير الصحافة المصرية. ومن بين هؤلاء الذين شاركوا في التطوير عدد من الكتاب الذين أضافوا إضافات مهمة إلى أوجه النشاط الأوروبي الأخرى، مثل سليم النقاش وأديب إسحاق[36]. وعلى الرغم من أن كثيرًا من أعمالهم لم تعش طويلًا ولكن بعضها استمر، وتبوأ مكانة جيدة. وجريدة الأخوين تقلا «الأهرام» التي صدرت من الإسكندرية أولًا عام 1876م، أصبحت سنوات عدة الصحيفة الأولى في العالم العربي.

سوريا

نحتاج إلى خلفية عامة لنعرف إسهامات المثقفين السوريين في التطور الأدبي والثقافي الذي عرضناه سابقًا. كانت بداية التطور الأدبي الثقافي مختلفة

هنا عنها في مصر، وذلك لوجود مجتمعات نصرانية محلية في سوريا ولبنان لها علاقات طويلة مع الغرب، على العكس من مصر التي استمر فيها الوجود النصراني القبطي في عزلة عن الغرب مقارنة بنصارى سوريا ولبنان، وبدأت الكنيسة الكاثوليكية في إنشاء اتصال مع المجتمعات النصرانية الشرقية في الشرق مبكرًا منذ القرن السادس عشر، وبعثت الإرساليات التبشيرية إلى المنطقة، وأنشأت تدريجيًّا سلسلة من المدارس الكاثوليكية، وعام 1736م أبرم المارونون اتفاقية بابوية مع روما تضمن لهم ممارسة تقاليد طقوسهم الدينية المحلية في مقابل الاعتراف بسيادة البابا. وبدأت تنتشر نسخ أوروبية لمواد عربية وبشكل خاص الكتب التوراتية وكتب الطقوس الدينية بين هذه المجتمعات، ودخلت الطباعة العربية عبر هذا الطريق إلى العالم العربي مع طباعة التراتيل الملكية العربية في حلب عام 1706م[38].

نتيجة لهذه التطورات ظهر قساوسة متعلمون ومطلعون ليس فقط على تاريخ الشرق الأدنى ولغاته، ولكن أيضًا الإيطالية واللاتينية، وأدى تطور النظام التعليمي إلى تكوين طبقة متعلمة وسطى تبوأت مراكز مهمة في التجارة والمال والإدارة، واهتمت هذه الطبقة بالمنح التعليمية التي شملت اهتمامًا باللغة العربية والأدب وتاريخ منطقتهم[39]. ونشر كثير من المؤرخين أعمالًا تدور حول تقلب أحوال المارونيين، وبدأ هذا الاتجاه البطريك إستيفانوس الدويهي (1603 – 1704م) الذي كتب «تركة الأزمنة»، وكتب الأمير حيدر شهاب (1761 – 1835م) كتابًا كان له تأثير عن تاريخ لبنان السياسي، وكتب طنوس الشدياق[40]، شقيق (أحمد) فارس الشدياق[41] المشهور، كتابًا عن تاريخ العائلات الأرستقراطية في لبنان، ليس فقط العائلات المارونية، ولكن أيضًا العائلات الإسلامية والدرزية.

من السمات المميزة للحياة الثقافية لسوريا خلال هذه الحقبة ظهور عدد من العائلات المتعلمة بشكل يفوق العادي، وعلماء في أكثر من جيل، ومن المشاهير الذين برزوا: اليازجي، والبستاني، والشدياق. وتعلم كثير من هؤلاء العلماء في معاهد مارونية في عين ورقا، ومن ثَمَّ وجد كثير منهم عملًا، في جزء منه على الأقل، في القنصليات الأجنبية أو مع الإرساليات الغربية. ونمت نظرة مختلفة لدى هذه المجموعة المثقفة النصرانية في وسط يغلب عليه المسلمون داخل الإمبراطورية العثمانية عن تلك التي تميز بها الرواد المسلمون للنهضة في مصر، ولم تكن علاقتهم مع الغرب مختلفة جذريًّا فقط، ولكن أيضًا موقفهم من اللغة العربية (التي ارتبط تطورها ارتباطًا وثيقًا بالقرآن الكريم والإسلام) كان معقدًا. وكانوا أقل تقيدًا بالتقاليد من نظرائهم المسلمين في أماكن أخرى، وطوروا اهتمامًا خاصًّا، وصاغوا العربية بوصفها أداة للتعبير عن الحياة وأفكار العلم المعاصرة - وهو اهتمام برز ليس فقط في التعبير الأدبي وما إلى ذلك، ولكن أيضًا من خلال تأليف المعاجم والموسوعات واهتمام بمجال واسع من الصحافة والأنشطة المتعلقة بها.

«أبو» هذه المجموعة من الكتاب - ليس هناك تعبير أفضل من ذلك - هو الشاعر والمدرس الماروني ناصيف اليازجي (1800 - 1871م) الذي تقف أعماله في مفترق الطريق بين الأدب الكلاسيكي والحديث. وعلى الرغم من وصف أهم إصداراته «مجمع البحرين» (1856م) بأنه عمل ريادي، ولكن هناك القليل من الأصالة في استخدام الكاتب لشكل المقامة التقليدية، ومن الواضح أن هدفه الرئيس كان تعليميًّا[44]. وأهمية اليازجي تكمن في اهتمامه الكبير باللغة والأدب العربي عنها في أصالته، والدفع الذي يعطيه اهتمامه لرواد النهضة في سوريا ولبنان، وكثير منهم كانوا تلاميذه، وعلى الأقل أربعة

مـن أبنائه - حبيـب، وإبراهيـم، ووردة، وخليل - كانـوا نشطين في الحلقات الأدبيـة. ويمكـن وصف العائلة بشـكل عام بأنهـا أحد المساهمـين الرواد في النهضة الأدبية في القرن التاسع عشر(45).

وعلـى الرغم من أن بداية النهضة الأدبيـة في سوريا كانت مستقلة إلى حد ما عن تلك التي في مصر، ولكن التطور الأدبي في المنطقتين خلال القرن التاسـع عشر سرعان مـا تداخل. وعام 1831م ولرغبـة محمد علي الملحة في ترسيـة حكـم مستقر على الحـدود الشرقية غزا سوريـا، وبقيت سوريا تحت الاحتـلال المصري نحـو عشر سنوات يحكمها ابن الخديـوي، إبراهيم باشا. وإحـدى النتائج المباشرة لهذا الاحتلال كانت ازديـاد التعليم الغربي ونشاط الإرساليـات التبشيريـة في البـلاد. ولم يقتصر التأثـير علـى عـدد مدارس الإرساليـات الجديدة المفتوحة خـلال هذه الحقبة، ولكـن أيضًا زرعت بذور تطوير التعليم العالي في المنطقة: أسس الأمريكيون عام 1847م كلية أصبحت عـام (1866) الكليـة الأمريكية، ثم تحولت إلى الجامعـة الأمريكية المرموقة في بـيروت، بعـد ذلـك بسنوات قليلـة عـام 1874م افتتح الجيزويـت كلية في بيروت عرفت بعد ذلك باسم جامعة القديس جوزيف. ومع أن التأثير الثقافي للاحتـلال المصـري القصـير كان مهمًّـا، ولكن التأثـير الجانبـي السياسي والاجتماعـي لغزو محمد على للمشرق كان دوليًّـا. وأثارت محاولات إبراهيم المسـاواةَ الدينية والإصلاح الاجتماعي معارضة كبيرة، وقامت ثورة حين أثار النظـام المصري المعارضة الغربية بدخوله آسيـا الصغرى، وأدت هذه الثورة إلى إخلاء المصريين من البلاد (سوريا) عام 1840م(46). وأعقبت ذلك حقبة من الفوضى السياسية، واتسمت هذه الحقبة بازدياد التدخل الغربي، وقسوة الحاكم العثماني، ونمو التوتر بين الجماعات الدينية المختلفة. ووقعت الحرب

عـام 1860م بـين المجتمع الدرزي والمـاروني، وغادر كثير مـن السوريين (بما ذلك بعض المثقفين) البلاد وهو نمط تكرر في مناسبات عدة على مر السنوات اللاحقـة. وذهب هؤلاء المهاجرون إلى مصـر، وساعدوا على تحريك البحث عـن أشكال جديـدة للتعبير الأدبي، ومساهمتهم في حقـل المسرح والصحافة مهمـة. وبعضهم الآخر بحث عن ملجأ في مجتمعـات المهجر في شمال أمريكا وجنوبها، التي سرعان ما نشأت فيها مجموعات أدبية واجتماعية مقربة، من بينها كتـاب مثل ميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران اللذين أدَّيا دورًا رئيسًا في نقل تجربة الأدب الغربي المعاصرة إلى عرب الشرق.

في سوريـا، كما هي الحـال في مصر كان للصحافـة دور مهم في تطوير النهضـة الأدبيـة. وعـام 1851م أسسـت الإرسالية الأمريكيـة البروتستانتية في بـيروت المجلـة العربيـة مجموعة فوائـد لنخبـة أفاضـل، ورأت السنوات اللاحقـة توسعًا في الطباعـة التجارية ونشاط النشر، الـذي جعل من بيروت أحـد أهـم مراكـز النشر في الوطـن العربي، وهـي مكانة مازالـت تتمتع بها مـع القاهرة. في هذه الحقبـة ظهر كثير من الإصـدارات المؤثرة بما في ذلك مجلـة «الجنان» (1870 – 1886م) التي كانـت تصدر كل أسبوعين، وارتبطت بشـكل خاص بعائلة البستاني. والمجلة النقديـة الشهرية «المقتطف» (1876 – 1959م) حررهـا في البدء يعقوب صروف وفارس نمـر، وانتقلت إلى القاهرة عـام 1885م. وظهر هذا النوع مـن النشر العربي أيضًـا في إسطنبول، مركز الإمبراطوريـة العثمانية، وهناك صـدرت «الجوائب» (1861 – 1884م) وكان يحررها (أحمد) فارس الشدياق(49) التي أدت دورًا مهمًّا في الازدهار الأدبي، مثـيرة نقاشًا عـن التطور اللغـوي والأدبي، وحققـت توزيعًا وصـل إلى خارج تركيا، ووصل الهند، وزنجبار وشمال إفريقيا. وكما هي الحال في مصر، أدت

هــذه المطبوعات ومثيلاتها مهام عدة، فقدمــت معلومات جمة للقارئ العادي عن الفكــر الغربي، والحضارة، والعلم، وفي الوقت نفسه كانت وسيلة لإصدار نصوص أدبية، سواء كانت ترجمات أم مقتبسات أم أعمالًا جديدة. وفي بعض الحالات على الأقل، كانت أداة الأفكار السياسية، ومن ثَمَّ كان لها دور مهم في تطور أفكار القومية العربية داخل إطار الإمبراطورية العثمانية [50].

كان لبطرس البستــاني (1819 – 1883م) دور مهــم بشــكل خاص في النهضــة السورية الذي إضافــة إلى تأسيسه مجلة «الجنــان»، نشر عددًا من ترجمــات الأعمال الغربيــة الأدبية، منهــا روايــة، pilgrim's progress ورحلة الحاج لجــون بنيان John Bunyan، ورواية روبنسن كــروزو Robinson Crusoe لدانييل ديفو Daniel Defoe. ومن الأرجح أن أشهر مساهماته في مجال تأليف المعاجــم كتابه «محيط المحيط» (1867 – 1870م) الذي يُعَدُّ عادة أول قاموس يضعه معجمي عربي حديث، وألف الأجزاء الأولى لأول موسوعة عربية «دائرة المعــارف» (1876 – 1882م). وأكمــل أفراد آخرون من عائلتــه أنشطته منهم عبــدالله البستــاني (1854 – 1930م) الــذي بجانب عملــه صحفيًا ومترجمًا وضــع قاموسًا ضخمًا، وسليم البستاني (1846 – 1884م) رائد مهم في تطور القصصــ العربــي، وسليمان البستــاني (1856 – 19259م) الــذي فعل أكثر مــن مساعدة ابــن عمه بطرس في عمله علــى الموسوعة العلميــة، ولكنه أيضًا وضع ترجمة شعرية لإلياذة Iliad هوميروس Homer، وهي أول محاولة حديثه لترجمة عمل كلاسيكي رئيس إلى العربية.

وقــدم فارس الشدياق مساهمات مهمة للعلــوم اللغوية وعلم المعجمات، وهــو الأروع في هذه المجموعة من الكتاب، وجســد عمله العلاقات المعقدة بين الشــرق والغــرب، وأيضًا داخــل الشرق الأوسـط ذاته في ذلــك الوقت. ويقع

الإنتاج الأدبي للشدياق على مفترق طرق عدة مستمدة من التراث الأدبي العربي والغربي، ومحتلة مكانًا حيويًا في نقطة التحول بين الأدب «الكلاسيكي» و«الحديث»، إضافة إلى أن هذا الرجل، من خلال رحلاته ومعارفه والتصاقه بأديان مختلفة ومجموعات اجتماعية قلل من التوتر والخيارات التي تواجه كثيرًا من المثقفين في الشرق الأوسط في القرن التاسع عشر، حين يواجهون التأثير الغربي المتنامي.

ولد فارس الشدياق عام 1804م لعائلة مارونية في أشكوت بلبنان، واشتغل مدة ناسخًا لدى الأمير حيدر شهاب قبل أن تضمه إليها الإرساليات الأمريكية البروتستانتية ويعمل لديها مترجمًا في مالطا. بعد ذلك ذهب إلى إنجلترا (في كامبريدج وحولها) ليترجم العهد الجديد إلى العربية، وفي السنوات القليلة اللاحقة سافر بشكل متكرر بين لندن وباريس، وأيضًا زار تونس وهناك تحول إلى الدين الإسلامي، وأضاف اسم أحمد إلى اسمه الأصلي. وأمضى الحقبة الأخيرة من حياته في القسطنطينية، حيث دعاه السلطان عبدالمجيد، وعام 1861م دشن المجلة الأسبوعية «الجوائب» التي كرس لها بقية حياته، والتي تمتعت بانتشار مدهش في العالم العربي وأبعد من ذلك. وتوفي عام 1887م، وأعيد جثمانه إلى أرض العائلة في الحدث بلبنان للدفن، وشبه المؤكد أن القصة التي يرددها حوراني (من بين آخرين)[53] عن تحول الشدياق ثانية إلى الكاثوليكية قبل وفاته ليس لها أساس من الصحة، ويحمل قبره شاهد رمز المسلمين.

ترك الشدياق ثلاثة أعمال جوهرية حملت تجربته وآراءه عن الغرب، ولها أهميتها: «الواسطة في معرفة أحوال مالطا» (1836م)، وهو يزودنا بوصف لتاريخ وجغرافية وتقاليد الجزيرة، التي أمضى بها جزءًا كبيرًا من

بداية حياته العملية، و«كشف المخبَّا عن فنون أوروبا» (تونس، 1866م)، وهو تفصيل عن أوروبا المعاصرة، ويمثل امتدادًا واضحًا لكتاب رفاعة الطهطاوي «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، وكتاب جزء منه متخيل والجزء الآخر سيرة ذاتية بعنوان «الساق على الساق في: ما هو الفرياق» (باريس 1855م).

ومن وجهة نظر أدبية، فإن الأهم من بين هذه الأعمال الثلاثه هو «الساق على الساق». ووصف، مع بعض المبالغة بأنه أول مقاربة حقيقية للكتابة القصصية في الأدب العربي الحديث. ومن الواضح أنه يدين لأسلوب المؤلف لورانس سترن trisram shandy والأسلوب السردي للشدياق مقارنة بمعاصريه من العرب، يسبق زمانه، فعلى سبيل المثال يستخدم «البعد السردي» حين يشير إلى نفسه بأسلوب الشخص الثالث[55] وليس المتحدث، ودعاباته، بالتبادل مستهزئة وساخرة، وفي بعض الأحيان فقط مغرقة في التفاصيل، وهذه الروح الفكاهية مبنية بقوة على مراقبة دقيقة للبشر، وتتنوع نبرة سرده بشكل كبير إلى حد أن القارئ قد يضيع بين الخيال والوقائع، ولا تكون الحدود الفاصلة بينهما واضحة.

من المحتمل أن أعمال الشدياق كانت ذات خصوصية عالية، ما صعب وجود خلفاء له في الكتابة، ولكن سيرته العملية قدمت تذكيرًا نافعًا بأن القنوات التي «أعاد» فيها العرب اكتشاف أوروبا في القرن التاسع عشر (من خلال عملية تحديد علاقتهم بالغرب، فإن العرب أعادوا تعريف أنفسهم) كانت معقدة بشكل كبير أكثر مما ذكرته الكتابات التقليدية، والشدياق الذي همش في معظم عمله، يمكن وصفه بالقوة لقوة شخصيته وتفردها، لتجاوزه وتأمله في ظروف زمنه. وفي الواقع، فإنه يتحفنا بمجموعة شائقة من قصص الحياة في الشرق الأوسط في القرن التاسع عشر، التي بالتأكيد تأخرت دراستها دراسة مسفيضة.

وبدأ المسرح يظهر في سوريا في تلك الأثناء. وأول خطوة مهمة أخذت لتأسيس مسرح عربي حديث كانت عام 1847م، حين عرض اللبناني مارون النقاش مسرحية مأخوذة من مسرحية Moliere موليير lavane في بيته ببيروت. تبع ذلك عام 1849م بعرض مسرحية، أبو الحسن المغفل وهارون الرشيد التي أخذت من إحدى قصص ألف ليلة وليلة. كانت وفاة مارون المبكرة ضربة لتطور المسرح العربي، ولكن حماسه لهذا الفن، الذي اكتسبه من رحلاته التجارية إلى أوروبا، انتقل إلى أفراد آخرين من عائلته. ونشر أخوه نقولا النقاش (الذي كتب أيضًا مسرحيات) مسرحياته وشكل ابن أخيه سليم خليل النقاش فيما بعد فرقته الخاصة. وعام 1876م وبعد دعوة الخديوي إسماعيل له استقر في الإسكندرية . واستمر انتقال الموهبة المسرحية من لبنان إلى مصر في ثمانينيات القرن التاسع عشر و تسعينياته[56].

وعلى الرغم من أن معظم التطور الثقافي في المشرق خلال هذه الحقبة كان متركزًا في لبنان، كما هو واضح مما سبق، ولكن حلب ودمشق كانا لهما نصيبهما الفكري. بدأ أحمد أبو خليل القباني (1841م – 1902م) في دمشق عرض مسرحيات على غرار مسرحيات مارون النقاش، بعض هذه المسرحيات استمد قصصها من ألف ليلة وليلة، وعام 1884م أقفل مسرحه، وانضم إلى المواهب المسرحية التي انتقلت من سوريا إلى مصر. وفي مجال الأدب القصصي الناشئ ساهم معاصره نعمان عبده القصطيلي (1848م – 1920م) بثلاث قصص رومانسية نشرت في مجلة البستاني «الجنان»[57]. ويجب أن نذكر فرانسيس ماراش (1836م– 1873م) في حلب، وهو كاتب أرثوذكسي وشاعر، ويدور كتابه الرمزي «غابات الحق» (1865م)، الذي معظمه حواري، حول قضية الوصول إلى مملكة الحضارة والحرية، وتوقف

عمل ماراش الكتابي بسبب موته المبكر، إلا أن أسلوبه الأصلي (ما بين النثر والشعر) أثر بعد ذلك في جبران خليل جبران[58]، وعلى الرغم من أنه لا يقرأ الآن كثيرًا، ولكنه وصف بأنه استحق أن ينظر إليه على أنه «أول عربي حقيقي عالمي مثقف في الوقت الحاضر[59]».

المناطق الأخرى

على الرغم من أن التطورات الرئيسة المهمة في المراحل الأولى من النهضة كانت في معظمها متركزة في مصر وسوريا الكبيرة، ولكن من المبالغة القول: إن النشاط الأدبي كان غائبًا عن الأجزاء الأخرى من العالم العربي. وتبع إنشاء مطبعة بولاق في القاهرة عام 1822م ظهور مطابع عربية في معظم المراكز الكبيرة في الشرق الأوسط العربي منذ أواسط القرن التاسع عشر وما بعد ذلك، بما في ذلك القدس (1847م) ودمشق (1855م) والموصل (1856م) وتونس (1860م) وبغداد (1863م) وصنعاء (1877م) والخرطوم (1881م) ومكة المكرمة (1883م) والمدينة المنورة (1885م)[60]. وفي معظم الأحيان كانت هذه المطابع تنتج - إضافة إلى الكتب - الصحف والدوريات من الأشكال شتى. وعلى أن القوى الثقافية الرئيسة الدافعة لنهضة ثقافية وقومية استمرت في الانطلاق من القاهرة وبيروت ودمشق، إلا أن تغيرات في طريقة نشر الكتب أصبحت واضحة في معظم مناطق العالم العربي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر (على أن التأثير العلمي لهذه التغيرات يختلف اختلافًا كبيرًا من بلد إلى آخر بناء على نسبة القراءة والمستوى العام للتعليم)[61]. وتقريبًا في معظم المناطق استمرت كتابة الأعمال التي كتبت في الأصل باللغة العربية، ومعظم الأحيان استمرت هذه الأعمال في التقيد بالقوالب التقليدية للأدب الديني والتاريخي، وأعطت اهتمامًا قليلًا للقراء خارج المناطق المحلية، إلا أن

مثل كثير من الجوانب «للمرحلة الانتقالية المبكرة لم ينل هذا الموضوع حقه من البحث الذي يستحقه، وفي العراق وشمال إفريقيا، إذا لم يكن في أماكن أخرى، ومن الممكن أن يشار إلى عدد من الكتاب والعائلات التي لأعمالهم صدى، على الأقل، لتطورات جذرية في وسط العالم العربي.

العراق

الخلفية التاريخية للتطور الأدبي في العراق معقدة، بسبب موقع العراق الجغرافي في أقصى الطرف الشرقي من العالم العربي الذي جعله عرضة لتأثير فارسي متكرر، سواء كان تأثيرًا سياسيًا، أم أدبيًا، أم لغويًا، وبحلول عام 1800م يكون قد مر على العراق 150 سنة ونيف منذ خضوعها تمامًا للإمبراطورية العثمانية، وبقي أدب العراق في معظمه تابعًا لنمط مشابه لما هو متبع في أجزاء أخرى من العالم العربي مع استمرار حظوة المقامة بوصفها شكلًا أدبيًا.

على الرغم من أن العراق مقارنة بمصر في القرن التاسع عشر بعيدة عن التأثر بالاتصال بالغرب، ولكننا نستطيع أن نجد في العراق بعض الاتجاهات والأدوات الواضحة في مصر وسوريا خلال المدة نفسها. على سبيل المثال، في سوريا برز عدد من العائلات التي لها دور قيادي في تطوير النشاط الأدبي. ونظم عبد الله السويدي (1692 - 1761م) قصائد وتعليمات، ومجموعة من المقامات، واستمرت موهبته عبر أبنائه الثلاثة، محمد سعيد الفاتح وإبراهيم عبد الرحمن، وأبو المحمد (1740 - 1795م)[62] والأخير كتب مقامة مليئة بالصور الغنية تدور حول حديقة مسحورة. وبلا شك فإن أكثر عائلة تأثيرًا في القرن هي عائلة الألوسي التي كانت نشطة في المجال التقليدي الديني والأدب

مـدة من الزمن. ومن أهم أفراد هذه الأسرة: أبو الثناء شهاب الدين محمود (1802 – 1854م) وحفيـده محمـود شكري أبو المعالي (1857 – 1924م). وأبو الثنــاء، الذي درس في دمشق وبـيروت وإسطنبول وعمل مدرسًا بعض الوقت، كتـب ثلاثة كتب يصـف فيها رحلاته، وكتب مجموعة مـن المقامات التي اتبع فيهـا الشكل التقليدي والمصطلـح اللغوي، وقد أظهـر اهتمامًا بالحاضر من خلال نقده للطرق الصوفية؛ لمحاولاتها التأثير في الناشئة المعاصرين. وأصدر محمود شكري من جانبه، وهو الغزير الإنتاج نحو خمسين عملًا في موضوعات مختلفة بما في ذلك التاريخ، والجغرافيا، والفقه، والمعجم، والدين، ومن شبه المؤكـد أن هؤلاء الكتــاب أُهملوا في معظم بحوث نهضة القــرن التاسع عشر، وحان الوقت لتقديرهم كما هي الحال مع شعراء قبل عبد الغني جميل (1780 – 1863م) وعبد الغفــار الأخرس (1805 – 1875م) ونجـد في شعـره بدايات العــراق لتحرير الشعر من قيوده التقليدية[63]. وهنـاك شعراء عراقيون آخرون لهـذه الحقبة يستحقون الإشادة مثل صالح التميمي (1762 – 1845م) وحيدر الهيلي (1831 – 1886م) الذي اشتهر برثائياته، وعبد الباقي العمري (ويعرف أيضًا بالفاروقي، (1790 – 1862م) الذي وصف بأنه إمام الشعراء في عصره.

شمال إفريقيا

قد تكون علاقة فكرة النهضة لدول المغرب (شمال إفريقيا وغرب مصر) ليست واضحة تمامًا. والاستثناء الواضح هو رجل الدولة والإصلاحي التونسي خـير الدين التونســي (1832 – 1889م) وكثير من الكتابات للنهضة في القرن التاسع عشر لا يذكر النهضة في شمال إفريقيا نهائيًّا [64].وتشير إنجازات خير الديـن إلى أنه لـولا الاحتلال الفرنسي الطويل للمنطقـة[65] لكان من المحتمل أن يكـون تطور الأدب العربي والثقافة في شمال إفريقيا قد أخذ منحنى آخر.

ولد خير الدين في القوقاز، وخبر الحياة في باريس وعواصم أجنبية أخرى، وخدم بوصفه رئيسًا للوزراء في تونس من عام 1873 إلى 1877م، قبل أن ينفى، عمل بعد ذلك وزيرًا أول من عام 1878 إلى 1879م، وأصدر في 1867 - 1868م كتابًا بعنوان «أقوم المسالك في معرفة الممالك»، استعرض فيه البنى التاريخية والسياسية والاقتصادية لعدد من الدول الأوروبية، وأيضًا الإمبراطورية العثمانية، ويناقش المؤلف في أمتع أجزاء الكتاب المعنون بالمقدمة (وهو عنوان مواطنه الشهير ابن خلدون (1332 - 1406م) في تفضيله التطور الغربي، الذي ينبع من وجهة نظره من اتحاد حكومة تمثل الشعب مع ثمار الثورة الصناعية. ومن المؤكد أن كتب خير الدين كانت معروفة للكاتب المصري رفاعة الطهطاوي، وقد تكون أثرت في آرائه في هذا الموضوع.

يمكننا أن نرى تقابلًا في جوانب أخرى بين تجربة مصر اللاحقة للغزو النابليوني وتجربة دول المغرب. وفي كل دولة من دول الشمال الإفريقي كان هناك بحث لهوية قومية (أو على الأقل محلية) طور إلى جانبه صراعًا ضد الاستعمار الفرنسي (أو الإيطالي كما هو في ليبيا) الذي أطبقت قبضته القوية على الدول المعنية، ليس فقط من الناحية السياسية، ولكن أيضًا اللغوية. وظاهرة ثنائية اللغة وميل الكتاب العرب إلى الكتابة بالفرنسية بدلًا من العربية كان له تأثير قوي في تطور الأدب العربي الحديث في شمال إفريقيا وبالتحديد، وليس فقط، في الجزائر والمغرب[66].

وفي كل الأحوال، فإن الجزائر كانت أولى دول شمال إفريقيا التي تحتل. ونشرت فيها الصحف باللغة الفرنسية مبكرًا منذ عام 1832م، وظهرت أول صحيفة ثنائية اللغة «المبشر» عام 1847م. وأعطى اكتشاف ما يبدو أنه أول

مسرحية مكتوبة بالعربية متأثرة بالنماذج الأوروبية، ونشرت في الجزائر عام 1847م[67]، ثقلًا إضافيًّا للرأي القائل: إن النهضة في شمال إفريقيا لم تدرس جديًّا، على الأقل الباحثين المتحدثين بالإنجليزية، وإن هذه النهضة تستحق اهتمامًا جادًّا[68]. وفي هذا الجانب، فإن مساهمة الأمير عبد القادر الجزائري (1808 – 1883م) وهو أيضًا يُذْكَر عادة بوصفه قوميًّا مخلصًا وخصمًا للفرنسيين، وهو أيضًا كاتب متعدد الجوانب، إلى جانب أعماله التقنية والحربية ألف كتبًا شعرية وفلسفية. وبغض النظر عن ذلك يبدو أن نهضة مصر والشرق الأدبية لم يكن لها تأثير واضح في مجرى الأحداث في الجزائر إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى ببضع سنوات، حين أنشأ عبد الحميد بن باديس الذي كان على معرفة بأفكار المصلح محمد عبده، جمعيةَ العلماء المسلمين، وأعقب ذلك مرحلة من النشاط الصحفي المكثف، وإصدارات عدة مكرسٌ معظمها للشعر، والقصص القصيرة، وأيضًا روايات، ومن بين الكتاب الذين اشتهروا في تلك الحقبة أحمد رضا حوحو (1911 – 1956م) وهو الأشهر. وفي تونس اتبع التطور الأدبي شكلًا مشابهًا بشكل عام – أسست الصحيفة الرسمية «الرياض التونسي» عام 1869، ولحقتها أول صحيفة يومية أهلية «الزهراء» عام 1889م. وبقيت معظم الكتابات تقليدية في الموضوع والشكل خلال القرن التاسع عشر، ولكن القليل من الكتاب مثل الشاعر محمد عبده (1815 – 1871م) بدؤوا في البحث عن سبل لجعل حرفتهم أقرب إلى العالم الحديث. وقارن محمد السنوسي (1851 – 1900م) مؤلف كتاب «مجمع الدواوين التونسية» بين عادات المسلمين والنصارى بطريقة تذكر بكتابة فارس الشدياق[69]. ولكننا لا نرى أي بداية لأدب عربي حديث حتى ثلاثينيات القرن العشرين – وهو وقت متأخر جدًّا مقارنة بمصر. وفي المغرب بدأ التطور متأخرًا مع تأسيس أول صحيفة عربية «المغرب» في طنجة عام

1889م، ومنذ ذلك التاريخ اتبع التطور الأدبي طريقًا مشابهًا كثيرًا للدول الأخرى، على الرغم من أن البنية اللغوية للبلد أصبحت معقدة؛ لوجود عدد كبير من المتحدثين بالبربرية.

الخاتمة

كانت النهضة بطبيعتها عملية منسابة، ومن الصعب إن لم يكن من المستحيل وضع وقت بعيد لاكتمالها. وفي نهاية عشرينيات القرن العشرين تمت معالجة معظم الإشكاليات الأولى المتعلقة بتبني الأشكال الأدبية الغربية لاستخدامها في الشكل العربي في الأجزاء الوسطى من العالم العربي، وكما تم وضع الأساس لتطور مستقبلي للأدب العربي الحديث في بقية القرن العشرين، ولكن العملية لم تكن متساوية في جميع العالم العربي، والتطور الأدبي في معظم الأنواع الأدبية اختلفت سرعته من بلد لآخر. الدول الأكثر ارتباطًا بالنهضة في مراحلها الأولى هي مصر وبلاد الشام ولكن الهجرة، ولأسباب سياسية وغيرها، لعدد كبير من المثقفين من بلاد الشام أبرزت مصر بوصفها رائدًا غير منافس في معظم حقول النشاط الأدبي في بداية القرن العشرين – وشكلت المجتمعات المغتربة في شمال أمريكا وجنوبها جسرًا ثقافيًا بين التأثيرات الغربية والتطور المحلي. وسوف نرى في الفصول المقبلة كيف تمت هذه التطورات خلال القرن اللاحق في ثلاثة أنواع رئيسة هي، الشعر، الرواية والمسرح.

obeikandi.com

ملاحظات

1 - انظر ص 282-283.

2 - التي كانت تضم في ذلك الوقت ليس فقط سوريا اليوم، ولكن ما يعرف الآن بلبنان والأردن و فلسطين وللأسباب التي نوقشت هنا كانت مساهمة سكان لبنان مهمة بشكل خاص في مراحل مختلفة من النهضة.

3 Haywood, *Modern Arabic Literature*, London, 1971, pp. 26ff.

4 Badawi, *A Short History*, p. 2.

5 Haywood, *Modern Arabic Literature*, p. 29.

6 On this, see Daly, M. W., *The Cambridge History of Egypt: Vol. 2*, especially chapters 3, 4, 5 and 11.

7 Muhammad Siddiq, review of M. M. Badawi (ed.), *Modern Arabic Literature*, in *Journal of Arabic Literature*, 26 (1995), p. 270.

8 - انظر ص 88-90.

9 Nelly Hanna, 'Culture in Ottoman Egypt', in Daly (ed.), *The Cambridge History of Egypt: Vol. 2*, pp. 87–112.

10 - انظر ص 269–290.

11 For a succinct account, see Darrell Dykstra, 'The French occupation of Egypt, 1798–1801', in Daly (ed.), *The Cambridge History of Egypt: Vol. 2*, pp. 113–18.

12 Commission des Monuments de l'Egypte, *Description de l'Egypte*, 1st edn, Paris, 1810–29.

13 On these publications, see Wassef, Amin Sami, *L'Information et la presse officielle en Egypte jusqu'à la fin de l'occupation française*, pp. 49–108.

14 Dykstra in Daly (ed.), *The Cambridge History of Egypt: Vol. 2*, p. 113.

15 See al-Turk, Niqūlā, *Chronique d'Egypte*, 1798–1804, ed. G. Wiet, Cairo, 1950.

16 al-Jabartī, 'Abd al-Raḥmān, *Napoleon in Egypt*, Moreh, 1993, p. 47.

17 S. Moreh, s.v. 'al-Jabartī, 'Abd al-Raḥmān', *EAL*, I, p. 403.

18 For a detailed account of Muḥammad 'Alī's reign, see Khalid Fahmy, 'The era of Muhammad 'Ali Pasha, 1805–1848', in Daly (ed.), *The Cambridge History of Egypt: Vol. 2*, pp. 139–79.

19 On this, see 'Abduh, Ibrāhīm, *Ta'rīkh al-Waqā'i' al-Miṣriyya, 1828–1942*, Cairo, 1942.

20 On this, see Roper, G., 'Fāris al-Shidyāq and the Transition from Scribal to Print Culture in the Middle East', in *The Book in the Islamic World*, ed. G. N. Atiyeh, pp. 209–32.

21 On this, see Hourani, A., *Arabic Thought in the Liberal Age*, 1798–1939, London, 1962.

22 On this, see Stetkevych, J., *Modern Arabic Literary Language: Lexical and Stylistic Development*, Chicago, 1970.

23 On al-Ṭahṭāwī, see Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798–1939*, pp. 67–83; Crabbs, J. A., *The Writing of History in Nineteenth-century Egypt*, Detroit, 1984, pp. 67–86.
24 For details, see Crabbs, *The Writing of History*.
25 English translation by Daniel Newman as *An Imam in Paris*, London, 2004.
26 Possibly modelled on Edward Lane.
27 On ʿAlī Mubārak, see Crabbs, *The Writing of History*, pp. 109–119, and S. Fliedner, *ʿAlī Mubārak und seine Ḫitat* (Islamkundliche Untersuchungen, 140), Berlin, 1990.
28 On al-Muwayliḥī, see below, pp. 97–9; a translation of al-Muwayliḥī's work, with a useful study may be found in R. Allen, *A Period of Time*, Reading, 1992.

29 – على سبيل المثال ص 194-195.

30 On these developments, see J. Heyworth-Dunne, *An Introduction to the History of Education in Modern Egypt*, London, 1939, repr. 1968.

31 – انظر ص 57.

32 On this, see P. C. Sadgrove, *The Theatre in Nineteenth-Century Egypt*, London, 1996.
33 It has since been replaced, on a different site, by a new construction donated by the Japanese.
34 On ʿAbduh and Amīn, see Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age*, pp. 164–70.
35 Otherwise Yaʿqūb Ṣanūʿ, for whom, see below, pp. 167–8.
36 On the theatrical activities of al-Naqqāsh, Isḥāq, etc, see below, pp. 166–7.
37 For a general history of the Arab press, see Ayalon, Ami, *The Press in the Arab Middle East: A History*, New York, 1995.
38 See Roper, *EAL*, II, 614, s.v. 'Printing and publishing'.
39 See Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age*, pp. 54ff.
40 See A. Hourani, 'Historians of Lebanon', in B. Lewis and P. M. Holt (eds), *Historians of the Middle East*, London, 1962.
41 For whom, see below, pp. 33–4.
42 P. C. Sadgrove, *EAL*, II, 812, s.v. 'al-Yāzijī, Nāṣīf'.

43 – انظر ص 127.

44 See Introduction to *Majmaʿ al-baḥrayn*, p. 3.
45 On the Yāzijī family, see Kratschkowsky, I., 'Yāzijī', *EI*[1], viii, p. 1171.
46 See Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age*, pp. 60–1; Khaled Fahmy, 'The era of Muhammad 'Ali Pasha', in Daly (ed.), *The Cambridge History of Egypt: Vol. 2*, pp. 165 ff.
47 See below, Chapter 9.
48 Literally, 'place of emigration'.
49 For whose literary activities, see below, pp. 33–4.
50 See Ayalon, *The Press in the Arab Middle East*.
51 See below, pp. 99, 107; also, S. Hafez, *The Genesis of Arabic Narrative Discourse*, London: Saqi, 1993, pp. 111–13; Matti Moosa, *The Origins of Modern Arabic Fiction*, 2nd edn, Boulder & London: Lynne Rienner, pp. 157–83.
52 The date and place of al-Shidyāq's birth have been disputed. See, for example, *EI*[2], s.v. 'Fāris al-Shidyāk'.
53 See Hourani, Albert, *Arabic Thought in the Liberal Age*, London, 1970, p. 98.

o p e i k a n d i . c o m

54 Boutros Hallaq, 'Love and the Birth of Modern Arabic Literature', in R. Allen, H. Kilpatrick and E. de Moor (eds), *Love and Sexuality in Modern Arabic Literature*, London, 1995, p. 17.
55 A technique that can also be seen in many later, more conventional autobiographies such as Ṭāhā Ḥusayn's *al-Ayyām* (for which, see below, p. 103).
56 See below, pp. 000; also Badawi, M. M., *Early Arabic Drama*, Cambridge, 1988, pp. 43–67.
57 See Moosa, *The Origins of Modern Arabic Fiction*, pp. 191–5.
58 For whom, see below, pp. 61–4, 88–90.
59 P. C. Sadgrove, *EAL*, II, pp. 510–11, s.v. See also, Moosa, *The Origins of Modern Arabic Fiction*, pp. 185–95.
60 Roper, *EAL*, II, p. 614, s.v. 'Printing and publishing'.
61 On this, see Findley, C.V., 'Knowledge and Education in the Modern Middle East', in G. Sabagh (ed.), *The Modern Economic and Social History of the Middle East in its World Context*, Cambridge: Cambridge University Press, 1989.
62 Haywood, *Modern Arabic Literature*, pp. 67–8.
63 On al-Akhraṣ, see Jayyusi, *Trends and Movements in Modern Arabic Poetry*, pp. 29ff.
64 See, for example, Badawi, *Modern Arabic Literature* (Cambridge History of Arabic Literature), in which even Khayr al-Dīn al-Tūnisī is apparently unmentioned, either

65 – استمـر الاحتلال الفرنسي للجزائر من عـام 1830 إلى 1962 وتونس من 1882 إلى 1956 والمغـرب مـن 1912 إلى 1956 واستمر الاحتلال الإيطالي لليبيا من 1911 إلى 1943.

66 On this, see Jacqueline Kaye and Abdelhamid Zoubir, *The Ambiguous Compromise: Language, Literature and National Identity*, London and New York, 1990.
67 On this, see S. Moreh and P. Sadgrove, *Jewish Contributions to Nineteenth-Century Arabic Theatre*, Oxford, 1996.

68 – ولأسباب تاريخية لا يحتاج الموضوع الى شرح أكثر فإن المساهمة الفرنسية في المنح التعليميـة في أدب شمـال إفريقيا أكـثر شمولاً من العالم المتحـدث بالإنجليزية. وبالتأكيـد من الصعب إجراء بحث جاد على الأدب في شمال إفريقيا دون معرفة اللغة الفرنسية.

69 For Tunisian literature generally, see J. Fontaine, *Histoire de la littérature tunisienne par les textes*, Bardo, 2 vols, 1988, 1994; idem, *La littérature tunisienne contemporaine*, Paris, 1991; S. Pantuček, *Tunesische Literaturgeschichte*, Wiesbaden, 1974.